LE MINOTAURE OU LA HALTE D'ORAN

ALBERT CAMUS

المينوتور[1] أو وقفة وهران

ألبير كامو كاتب فرنسي معروف من كتاب الجيل الحديث . نشأ في شمال أفريقيا واكتسب لنفسه مكاناً ممتازاً في الأدب حين نشر أسطورة « سيزيف » *Sisyphe* وهو كتاب يعرض فيه مذهبه في فلسفة العبث ، وقصة « الغريب » *L'étranger* التي تمتاز بعمق التفكير ويسر التعبير . وبمسرحيته اللتين نالتا في باريس فوزاً عظيماً وهما كاليجولا *Caligula* وسوء التفاهم *Le malentendu* .

وقد اخترنا بهذا الفصل الرائع في الأدب الوصفي الذي ننشره ليرى أدباء الشباب مذهب الكتاب الفرنسيين في النظر إلى الأشياء وتصورها واتخاذها وسيلة إلى التفكير والاعتبار .

« إني أتصوره في بلاط الملك مينوس موزع اللب قلقاً يريد أن يعرف أي نوع من أنواع الوحوش المروعة يكون المينوتور : أشنيع إلى هذا الحد ؟ أم لعله أن يكون خلاباً جذاباً ؟ »

فكر غير متحيز

لم تبق من صحار ولم تبق من جزر ، ومع ذلك فان الحاجه تدعو إليهما . وإذا أردنا أن نفهم العالم فينبغي أحياناً أن نتحوّل عنه ، وإذا أردنا ان نخدم الناس فعلينا أن نمسكهم نائين عنا إلى حين . ولكن من لنا بالمكان الذي نجد

---

(١) المينوتور : وحش ، تذهب الأساطير اليونانية إلى أن نصفه آدمي والنصف الأعلى ثور ، كان يتغذى بلحم بني آدم : سجن في لابيرنت جزيرة أقريطش . وقد استطاع ثيزيوس أحد أبطال اليونان أن يهتدي إليه في اللابيرنت بفضل خيط أعطته إياه أريان بنت الملك مينوس وقتله .

واللابيرنت ، أو قصر التيه ، يتألف من مجموعة لا حصر لها من الغرف الصغيرة المظلمة المتداخلة ، يضل كل من دخلها ولا يمكنه الاهتداء فيها إلى الطريق .

فيه القوة والنفس الطويل اللذين يجمع الفكر فيهما شمله ، وتقدّر الشجاعة فيهما نفسها . هناك المدن الكبرى ، ولكنها فى حاجة إلى بعض الخصال . فالمدن التى تعرضها علينا أوربا ملأى بهمهمة ذكريات الماضى . وفى وسع اذُن متدربة أن تدرك حفيف بعض الأجنحة وخفق بعض النفوس ، تحسّ فيها دوار القرون الغابرة والثورات والمجد ، وتذكر فيها أن الغرب صُهِر وسط الصياح والعجيج . وليس كل هذا خليقاً أن يهيئ لنا ما نحتاج إليه من صمت .

كثيراً ما تكون باريس صحراء بالقياس إلى القلب . ولكن قد تمرّ بعض الأحيان تهبّ فيها من فوق مقبرة « البير لا شيز » ريح ثورية تملأ المدينة فجأة بالأعلام وبألوان العظمة المنهزمة . وكذلك الأمر بالقياس إلى بعض المدن الأسبانية أو إلى فلورنسا أو إلى براغ . وسالزبورج مدينة هادئة ساكتة لولا موزار ، فمن حين إلى حين تندفع على السلزاك الصيحة المدوية المتكبرة التى يدفعها دون چوان حين يلقى به فى أعماق الجحيم . وقد تبدو فيينّا أدنى إلى الهدوء ، وهى فتاة بين المدن ، وحجارتها حديثة السنّ لاتتجاوز ثلاثة قرون ، فلا يعرف شبابها الأسى والشجون . غير أن فيينّا ملتقى للتاريخ يدوى من حولها اصطدام الدول . وربما يمر بها مساء تصطبغ فيه السماء بحمرة الدم . ويخيّل إلينا فيه أن تماثيل الخيل الحجرية المقامة على الرنج توشك أن تطير . فى هذه اللحظة العابرة يتحدث كل شئ عن التاريخ وما يحفل به من بأس ، ونستطيع أن نشهد فى وضوح انهيار الدولة العثمانية تحت انقضاض الجيوش البولاندية . وهذا أيضاً ليس خليقاً أن يهيئ لنا ما نحتاج إليه من صمت .

ولا شك أن الذى يبحث عنه فى هذه المدن الاوربية هو تلك العزلة المأهولة ، أو على الأقل يبحث عنها أولئك الذين يعلمون ما يريدون . يستطيعون فيها أن يختاروا لأنفسهم الرفاق ، يستبقونهم حيناً ويتخلون عنهم حيناً . وما أكثر الذين صهرت الحياة نفوسهم وهم يقطعون الطريق بين غرفة فندقهم والأحجار القديمة فى جزيرة سان لوى .[1] من الحق أن غيرهم أهلكتهم العزلة ، غير أنهم هلكوا لأنهم لم يكونوا على حظ كاف من الجلد وقوة الاحتمال .

---

(١) قلب باريس .

أما الأولون فقد حفزتهم هذه الوحدة إلى السمو وإلى تثبيت نفوسهم . كانوا فى العزلة ولم يكونوا فيها . كانت ترافقهم على ضفاف نهر السين قرون من التاريخ والجمال تحدثهم عن شتى التقاليد وعن مختلف ألوان التقدم . على أن شبابهم كان يدفعهم إلى استدعاء مثل هذه المرافقة . ولكن أوقاتاً تلمّ وظروفاً تمرّ ، وإذا هذه المرافقة ثقيلة مرهقة . فقد صاح راستينياك أمام البقعة العفنة الضخمة التى كانت تتألف منها مدينة باريس : « ليصطرع إثنانا » . نعم كانا اثنين ، ومع ذلك كان العدد ضخماً .

والصحراء نفسها قد اتخذت معنىً ؛ فقد حُمِّلت شعراً وأصبحت من هذه الأماكن المقررة . والذى يبغيه القلب فى بعض الأوقات ، هو على العكس من ذلك مكان لا شعر فيه . وقد أراد ديكارت أن يخلو إلى نفسه ليمعن فى التفكير والتأمل ، فاختار لذلك صحراءه ، مدينة كانت فى ذلك الوقت من أكثر المدن تعاطياً للتجارة ، فوجد فيها عزلته . وكانت هذه العزلة مصدر وحى شعرى لعله من أعظم شعرنا وأقواه ، نجد فيه هذه العبارة : « والمبدأ الأول ألاّ أتقبل شيئاً ما على أنه حق إلا أن أتبين ذلك بداهة » . وقد يكون المرء أقل طموحاً ولا يكون مع ذلك أقل ميلا إلى الحنين . على أن أمستردام امتلأت منذ ثلاثة قرون بالمتاحف . وإذا أردنا أن نفرّ من الشعر لنلقى سكون الأحجار ، فعلينا أن نبحث عن صحار أخرى ، عن أماكن لاروح فيها ولا عون . ووهران إحدى هذه الأماكن .

ليس من مكان لم يشوهه أهل وهران ببناء شنيع يشوّه أى منظر طبيعى . تتوقع مدينة تستقبل البحر وقد فتحت عليه ، يرطبها ويغسلها نسيم المساء ، ولكنك ، إذا استثنيت الحى الأسبانى ، تجد مدينة تستدبر البحر وقد بُنيت على شكل حلزونى وهى تدور حول نفسها على غرار بعض القواقع . فوهران سور ضخم مستدير أصفر اللون تظله سماء قاسية . وفى أول الأمر تضلّ فى قصر التيه ، تبحث عن البحر كأنك تبحث عن خيط أريان . ولكنك تدور فى شوارع ملتهبة قائظة تحضر النفس ، وفى نهاية الأمر يلتهم المينوتور أهل وهران . وهذا الوحش هو السأم . ومنذ زمن بعيد لم يعُدْ أهل وهران يهيمون على وجوههم فى غير هدى ، فقد قبلوا أن يُلتهموا .

ولن تستطيع معرفة الحجارة على وجه التحقيق إذا لم ترَ وهران . ففى هذه المدينة التى يطغى عليها الغبار ، يستأثر الحصى بالمكان الأول إلى حد أن التجار يضعونه فى مقدمات حوانيتهم لتثبيت الأوراق ، بل لمجرد العرض ، وتؤلف منه كومات على جوانب الطرقات ، ولا بد أن يكون ذلك لمتعة العين ، فإنك تجد الكومة فى مكانها وقد يمرّ عليها عام . والأشياء التى تستمد شاعريتها من النبات فى أماكن أخرى تتخذ هنا وجه الحجارة . فالأشجار التى قد تصادفك فى مدينة التجار والتى لا تزيد فى مجموعها على العشر يكسوها الغبار . فهى نباتات متحجرة تتساقط من أغصانها رائحة مريرة تربة . وللمقبرة العربية فى مدينة الجزائر هدوء ودعة اشتهرت بهما . أما فى وهران فاذا نظرت فوق وادى رأس العين ، وجدت بقاعاً من الأرض تواجه البحر هنا ، هى حقول من الحصى الجيرى المتفتت ، لاصقة بالسماء الزرقاء ، تشعل الشمس فيها حرائق طامسة تعمى الأبصار . ووسط عظام الأرض هذه ترى بين آن وآخر زهرة من زهور الچيرانيوم تهب لمنظر الطبيعة حياتها ودمها الرخص . وقد جمدت المدينة كلها فى إطار متحجر . وإذا نظرت إليها من المزارع ، فإن صخور الشواطئ التى تحاصرها من السُّمك بحيث يخيّل إليك أن منظر الطبيعة خيالى غير واقعى لشدة معدنيته . وليس للإنسان فيه مكان لأنه قد أقصى عنه إقصاءً . وكأن كل هذه الروعة المثقلة تأتى من عالم آخر .

وإذا جاز لنا أن نُعَرِّف الصحراء بأنها مكان لاروح فيه تسوده السماء دون سواها ، فإن هذه المدينة تنتظر إذن أنبياءها . فأنت إذا نظرت من فوق المنازل ومن حولها رأيت الطبيعة الإفريقية الجافة العنيفة قد زينتها مفاتنها الوهاجة ؛ فهى تدفع المنظر المنكر الذى غمرت به فتصدّعه ، وترسل صيحات عنيفة بين كل منزل ومن فوق كل سطح . وإذا صعّدنا فى إحدى الطرقات الجانبية التى تتسلق جبل سانتا كروز ، فأول مايبدو أمام أنظارنا هو مكعبات وهران المنتثرة الملونة . وإذا ماارتفعنا قليلا ، فسرعان ما تظهر صخور الشواطئ الممزقة التى تحيط بالنجد وقد انحنت على البحر كأنها ضوار حمر . وإذا واصلنا التصعيد فهذه لطمات عظيمة تمتزج فيها الشمس بالريح وتخيم على المدينة الشعثاء المتناثرة فى غير نظام بين مختلف أرجاء بقعة صخرية فتأخذها من جميع اقطارها ، وتجرى فيها الهواء وتخلط بعض أجزائها ببعض . وتجد هنا

تقابلا بين الفوضى الإنسانية الهائلة وبين استقرار البحر المستوى دائماً . وهذا يكفى حتى تنتشر فى الطريق الجانبى لسفح الجبل رائحة للحياة مذهلة .

وفى الصحراء خصلة القسوة التى لا تعرف اللين . فسماء وهران المعدنية اللون ، وشوارعها وأشجارها التى تغشاها طبقة من الغبار ، كل هذا يساهم فى إنشاء ذلك العالم الكثيف الجامد الذى لا يشغل فيه القلب والفكر عن نفسهما ، ولا عن هدفهما الفذ وهو الإنسان . وإنى أتحدث هنا عن خلوات صعبة ، وقد وضعت كتب عن فلورنسا وأثينا . وهاتان المدينتان والمدن الشبيهة بهما كونت عدداً كبيراً من رجال الفكر الأوربيين بحيث يجب أن تكون ذات مغزى . وهى تحتفظ بين طياتها بما يدعو إلى الحنين إليها والإكبار لها . وهى تسكن لوناً من ألوان الجوع تحسه الروح وتشبعه الذكرى .

- ولكن كيف الحنين إلى مدينة ليس فيها ما يغرى الفكر ، والقبح نفسه فيها لا يمتاز بطابع خاص ، وماضيها ينتهى إلى لا شئ ؟ وفيم التعلق بما لا يستطيع أن يقدم لنا شيئاً ؟ وما الذى تحويه هذه الأماكن من إغراء : أهو الفراغ ؟ أم الملل ؟ أم السماء التى لا تعبأ بشئ ؟ بل لعلها العزلة ، ولعلها الخليقة أيضاً . فالخليقة حيث تروع تصبح وطناً مرًّا لأجيال من الناس . ووهران إحدى هذه الأوطان الكثيرة .

الشارع

كثيراً ما سمعت أهل وهران يشكون من مدينتهم قائلين : « ليس فيها أية بيئة ممتعة . » وكيف يمكن أن يكون ذلك ! فقد حاول بعض ذوى العقول الطيبة أن يؤقلموا فى هذه الصحراء تقاليد عالم آخر وعاداته ، متبعين فى ذلك المبدأ الذى يذهب إلى أنه لا يمكن خدمة الفن أو الفكر على خير الوجوه إلاّ إذا تضافرت على ذلك الجهود [1] . وكان من نتيجة هذا أن ما بقى فى وهران من بيئات ممتعة إنما هى بيئات لاعبى البوكر ، وهواة الملاكمة والكرة الخشبية ،

---

(١) تجد فى وهران كليستا كوف بطل جوجول . فهو يتثاءب ثم يقول : « أشعر أن على أن أعنى ببعض الرفيع من الامر » .

والجمعيات الإقليمية المحلية . فى هذه البيئات على الأقل ينأى أهل وهران عن التكلف ويرسلون أنفسهم على سجيتها . وذلك واضح جلى . فهناك نوع من العظمة لا يستطيع أن يسمو ، فهو مجدب بطبعه . وعلى أولئك الذين يرغبون فى استكشافه أن يتركوا البيئات وينزلوا إلى الشارع .

وشوارع وهران موهوبة للغبار والحصى والقيظ . وإذا سقط المطر كان طوفاناً وتحوّلت الأرض إلى بحر من الوحل . ولكن سواء أسطعت الشمس أم نزل المطر ، فإن الحوانيت تحتفظ بنفس المظهر العجيب الشاذ . وقد اصطلحت الألوان المختلفة من سوء الذوق فى الغرب والشرق على أن تلتقى فيها . تجد بها أكداساً من التحف ، فهذه كلاب سلوقية من المرمر ، وراقصات تصحبهن بجعات ، وآلهة صيد من الجلاليت الأخضر ، وهؤلاء لاعبو الكرة الخشبية ، وحاصدو الحقول . بها كل ما يستعمل للهدايا والمسابقات وأعياد الميلاد ، وكل ما يتخذ طريق الحواصل ورفوف المدافئ . بها كل هذه المجموعة المحزنة التى لا تفتأ تنشئها عبقرية تجارية مهرّجة . على أن هذا الإمعان فى فساد الذوق يتخذ هنا مظهراً مضحكا يجعلك تغتفر كل شىء . فهاك ما تحويه مقدمة أحد الحوانيت ، وقد عُرض مغموراً بالغبار : نماذج شنيعة من أرجل معذّبة متألمة مصنوعة من الجبس ، ومجموعة من « رسوم رمبرانت مضحاة بمبلغ ١٥٠ فرنكا للرسم » وحافظات للأوراق النقدية مثلثة الألوان ، ورسم بالپاستيل يرجع إلى القرن الثامن عشر ، وجحش ميكانيكى صغير مصنوع من قماش يشبه القطيفة ، وزجاجات من سائل خاص لتخليل الزيتون الأخضر ، وتمثال بغيض للعذراء قد اتخذ من الخشب ، ذات ابتسامة فاحشة (وحتى لا يجهل أحد ما تمثله كتبت « الإدارة » تحت قدمه هذه العبارة « تمثال للعذراء من الخشب » .)

وتستطيع أيضاً أن تجد فى وهران ما يأتى :

أولا — مقاهى ذات مناضد تلمع من الدَّرَن ، مرشوقة بأقدام الذباب وأجنحتها . وصاحب المقهى دائم الابتسام على الرغم من أن حانته خالية دائماً . وكان ثمن القدح الصغير من القهوة ستين سنتيماً والكبير ثمانين .

ثانياً — حوانيت للتصوير الفتوغرافى لم تتقدم فيها الصناعة الفنية منذ اخترع الورق الحسّاس للتصوير . وهى تعرض مجموعة من الحيوانات العجيبة لا يمكن أن تصادفك فى الطرق العامة ، منها الصورة التى تمثّل بحاراً يسند

ذراعه على كونسول . ومنها الفتاة التى تؤهلها سنّها للزواج ، وقد حُزم خصرها بشكل مضحك ، فوقفت أمام منظر من مناظر الغابة وقد تدلّت ذراعاها إلى جانبيها . وتستطيع أن تقدّر أن صور هؤلاء الأشخاص لم تتخذ من نماذج طبيعية ، إنما هى مبتكرات أنشئت إنشاءً .

ثالثاً — عدداً وافراً من دور تجهيز الموتى ، لا لأن الناس يموتون فى وهران أكثر مما يموتون فى غيرها من المدن ، بل لأن الناس يعنون فيها بالموت أكثر مما يعنى به فى غيرها.

والسذاجة المميزة لهذا الشعب من التجّار والأجانب المستغلّين تبدو جلية حتى فى طرق الإعلان . فقد قرأت فى البرنامج المطبوع لإحدى دور السينما فى وهران إعلاناً عن فلم من الطبقة الثالثة ، فلاحظت فيه النعوت الآتية : « باهر » ، « فخم » ، « مدهش » ، « أخّاذ » ، « مذهل » ، « هائل » . ثم إن الإدارة تنبئ الجمهور بما تحملت من تضحيات عظيمة فى سبيل تقديم هذا « الإخراج » العجيب . وعلى الرغم من ذلك فإن ثمن التذاكر سيبقى كما هو ولن يُرفع .

ومن الخطأ أن تظن أن فى ذلك تصويراً لما يمتاز به أهل الجنوب من ميل إلى المبالغة ، بل إنما يبرهن واضعو هذا الإعلان على سداد حكمهم البسيكولوجى ؛ فإن عليهم أن يقهروا عدم الاكتراث والشعور السلبى المتأصل اللذين يستوليان على كل إنسان فى هذا البلد حين يريد الاختيار بين حفلتين تمثيليتين أو بين صناعتين أو حتى بين امرأتين ، فلا يقرّر إلا مجبراً . وفنّ الإعلان يعلم هذا حق العلم ، لذلك يتخذ لنفسه مقاييس أمريكية ، فهو هنا مدفوع بنفس الدوافع التى تحمله هنا إلى الغلو والإسراف .

وأخيراً فإن شوارع وهران تظهرنا على المتعتين الأساسيتين اللتين ينعم بهما شباب المدينة ، وهما مسح الأحذية ، ثم عرض هذه الأحذية فى الشارع العام . وإذا أردت أن تكوّن لنفسك فكرة دقيقة عن أولى هاتين المتعتين ، فعليك أن تكل نعليك الساعة العاشرة من صباح يوم أحد إلى أحد مساحى الأحذية بشارع جالينى . هنالك تستطيع وأنت جالس على مقعد مرتفع أن تتذوق اللذة الخاصة التى ينعم بها حتى غير الخبير فى هذه الأمور، حين يشهد رجالا مشغوفين بمهنتهم

كما يظهر ذلك فى جلاء على مسّاحى الأحذية الوهرانيين . تراهم يدققون فى كل نقطة ويمعنون فى كل تفصيل من تفاصيل مهمتهم . فهناك فرش متعددة ، وثلاثة أنواع من الخرق ومَزْج ماهر بين الدهان والبنزين . وقد يتبادر إلى ظنك أن العملية انتهت حين ترى البريق النهائى الذى ينشأ على أثر استعمال الفرشة الناعمة . ولكن نفس اليد الصَّنَّاع تعيد نشر الدهان على الطبقة اللامعة ، ثم تفركها ، ثم تطفئ بريقها ، وتوصل الدهان إلى أعماق ثنايا الجلد ، فترتفع نفس الفرشة عن الحذاء وقد انبعث من أعماق الجلد هذا البريق المزدوج الأخير .

يبقى بعد ذلك عرض الأحذية . وإن أردت أن تقدّر هذه المتع المستقاة من الطريق العام حق قدرها ، فعليك أن تشهد اجتماع الشباب فى حفلات الرقص التنكرى التى تقام كل مساء فى الشوارع الكبرى للمدينة . فالشباب الوهرانيون من « أبناء الطبقة الراقية » الذين تتراوح أسنانهم بين السادسة عشرة والعشرين يتخذون مثلهم العليا فى الأناقة من السينما الأمريكية ، ويستعيرون هذا الزى التنكرى كل مساء . فشعرهم مجعّد لاصق برءوسهم يتجاوز طرف قُبّعة من الجوخ مائلة على الأذن اليسرى ومنكسرة على العين اليمنى ، وقد حُصرت العنق فى ياقة ترتفع حتى تبلغ أطراف الشعر ، وأحاط بها رباط الرقبة تجمعه عقدة ضئيلة جداً يسندها دبوس لا مفرّ منه . والسترة تتدلّى حتى تبلغ نصف الفخذ على سروال قصير فاتح اللون . وينزل الخصر فيكاد يبلغ الوركين ، وتسطع الأحذية التى تقوم على طبقات ثلاث من النعال . ترى هؤلاء الشباب يتبختررون كل مساء على أرصفة الشوارع يقرعونها بما رُكّب فى طباعهم من ثبات جأش وما رُكّب فى أحذيتهم من أطراف الحديد . وهم يتكلفون فى كل هذا تقليد مشية كلارك جابل وهيئته المطمئنة واستعلاءه الممتاز . من أجل ذلك يطلق ذوو البصائر الناقدة من أهل المدينة على هؤلاء الشباب فى نطق غير مَعْنىّ بذقته لقب « الكلارك » .

ومهما يكن من شئ ، فإن الطرق العامة فى وهران حافلة فى أصيل كل يوم بجيش من الفتيان اليافعين الخفاف ، يتكلفون أقصى الجهد ليظهروا بمظهر شباب سيئ السلوك . ولما كانت الفتيات الوهرانيات يشعرن أنهن منذ الأزل شبه مخطوبات لهؤلاء المجرمين ذوى القلوب الرقاق ، فهن يتكلفن أيضاً ما تتخذ أشهر الممثلات الأمريكيات من زينة وبهرج وأناقة . ونفس

البصائر الناقدة الماكرة تطلق عليهن لقبا مقابلا وتسميهن « المارلين ».

فإذا أقبل المساء وصعدت من النخيل المصفوف على جانبي الشوارع الكبيرة أصوات الطير مرتفعة نحو السماء، التقت عشرات من « الكلارك » « والمارلين » يقيس بعضهم بعضاً بأنظارهم فى ترفّع، ويقوّم بعضهم بعضاً، وقد سعدوا بالحياة والظهور، فانسابوا أثناء ساعة لنشوة الوجود الكامل السعيد. هنالك يقول الحسّاد إننا نشهد اجتماعات اللجنة الأمريكية. لكنك تحسّ فى هذه العبارة مرارة السنّ التى جاوزت الثلاثين فلم يعد لأصحابها فى هذه الألعاب أرب، فهم يغضّون من هذه المؤتمرات اليومية التى يعقدها الشباب والخيال. والواقع أنها برلمانات الطير التى يتحدث عنها الأدب الهندى. لكن هذه البرلمانات التى تنعقد فى شوارع وهران لا تشقّ على العقول فى البحث عن مشكلة الوجود، ولا تجشمها السعى نحو الطريق المؤدى إلى الكمال، ولا تستبقى من الأثر إلا حفيف أجنحة مرهفة، وزهو أبهة مبهرجة، ورشاقة مدللة منتصرة، وبهاء غناء مرسل غير مكترث يختفى مع الليل.

وكأنى أسمع كليستاكوف يقول « أشعر الآن علىّ أن أعنى ببعض الرفيع من الأمر. » وهو للأسف قادر على ذلك. ولو دفع إلى العمل لعَمَر هذه الصحراء قبل بضع سنين. ولكن حسب القلب أن يكون له حظ من عمق حتى يرغب فى أن يخلص لنفسه وسط هذه المدينة السهلة وما تشتمل عليه من موكب فتيات مزينات بالمساحيق، لكنهن مع ذلك لا يستطعن إثارة العاطفة ويتخذن من التدلل ثوباً رقيقاً شفافاً لا يستر ما وراءه من المكر، وسرعان ما يكشف أمرهن. نعم! الاهتمام ببعض الرفيع من الأمر! وإن أردت ذلك فحوّل عينيك وانظر: هذه سانتا كروز قد نقشت فى الصخر نقشاً. وهذه الجبال الشاهقة، والبحر المستوى، والريح العاصفة، والشمس المحرقة، ورافعات الأثقال فى الميناء، والقُطُر، والمستودعات، والميناء نفسه، وهذه الدرجات الهائلة التى تتسلق صخرة المدينة، وفى المدينة نفسها هذه الألعاب وهذا الملل، هذه الضوضاء وهذه العزلة.

وقد لا يكون فى ذلك سمو كافٍ. ولكن القيمة الكبرى لهذه الجزر المكتظة بالسكان أن القلب يتجرّد فيها من كل شئ. فليس إلى الصمت الآن

من سبيل إلا فى هذه المدن التى تملؤها الضوضاء . وكتب ديكارت وهو فى أمستردام إلى بلزاك القديم : « إنى أتنزه بين شعب ضخم مختلط فأنعم بحظ من الحرية والراحة لا يقل عما تنعم به فى طرقات حديقتك » .

الألعاب

يقيم النادى الرياضى المركزى بشارع الفندق حفلة ملاكمة ، ويؤكد أن الهواة الحقيقيين سيقدرونها حق قدرها . وإذا أردنا أن نترجم هذا الإعلان إلى لغة واضحة فمعناه أن الملاكمين الذين سيتبارون ليسوا من الشهرة وذيوع الصيت فى شىء ، وأن بعضهم يرقى إلى حلقة الملاكمة لأول مرة . فإذا لم ننتظر من المتخاصمين فنًّا ممتازاً ، فلننتظر منهم على الأقل شجاعة وإقداماً . وقد أثارنى أحد أهل وهران إذ وعدنى وعداً قاطعاً « بأن سيراق فى هذه المباراة دم » ، فرأيتنى فى هذا المساء بين الهواة الحقيقيين .

ويخيل إلىّ أن هؤلاء الهواة لا يتطلبون أبداً لأنفسهم شيئاً من الرفاهية . فقد أقيمت حفلة ملاكمة فى نهاية شىء يشبه أن يكون حظيرة للسيارات ، طُلى بالجير وغُطى بالصفيح الموج وأضىء إضاءة عنيفة ، ووضعت مقاعد من تلك التى تطوى ، فرُصَّت على شكل مربع حول الحبال . وهذه « مقاعد الشرف » ، ووضعت مقاعد أخرى فى طول القاعة . وفى نهاية هذه القاعة يمتد مكان فسيح خال يُسمّى « الممشى » ؛ وذلك لأنه لايسوغ لواحد من المئات الخمس الحاضرة أن يخرج منديله دون أن يحدث حدثاً . فى هذا الصندوق المستطيل يتنفس نحو من ألف رجل وامرأتان أو ثلاث ، من أولئك اللاتى يهمهن دائماً « استرعاء النظر » كما حدثنى بذلك جارى . والنظارة جميعاً يتصببون عرقاً يوشك أن يغمرهم . وبينما هم ينتظرون معركة « الآمال » يدك فنوغراف ضخم صنوفاً من أغانى « تينو روسى » ، وهو اللحن الذى يتقدم القتل .

وصبر الهواة الحقيقيين لاحد له ؛ فقد أعلن أن الحفلة ستبدأ الساعة التاسعة مساءً ، وقد انتصفت الساعة العاشرة ولم تكن بدأت ، ولم ينكر ذلك أحد . والربيع حار ، وقد انتشرت فيه رائحة مثيرة تنبعث من هذه الإنسانية التى تجردت من سترتها . والمناقشة حادة يفصلها فرقعات منتظمة لصمامات القازوزة

والعويل النائح غير المنقطع الذى يصدر من المغنّى الكورسيكى فى غير ملل أو كلل . ويقحم ببعض القادمين من المتفرجين بين الجمهور ، وإذا بفانوس يمطر على حلقة الملاكمة ضوءاً يخطف الأبصار ، إيذاناً ببدء النضال بين « الآمال » .

والآمال أى المبتدئون الذين يناضلون فى سبيل المتعة دون سواها ، يجتهدون دائماً فى أن يبرهنوا على ذلك بتضحية أنفسهم فى لهف ، غير عابئين بأية قاعدة من قواعد الفن . وهؤلاء المبتدئون لا يتجاوز نضالهم مطلقاً ثلاث جولات . وبطل الليلة فى هذا المضمار هو الفتى كيد اڤيون الذى يجول أثناء النهار بأوراق اليانصيب يبيعها على شرفات المقاهى . وهذا خصمُه قد دُفع إلى خارج الحلقة فى مبدأ الجولة الثانية على أثر ضربة أصابته من يد انهالت عليه بسرعة عجيبة .

وأخذ جمهور النظارة يتحمس قليلا ، ولكنه مازال تحمساً مجاملا . تحس هذا الجمهور غارقاً فى لذة عميقة ، يستنشق الرائحة المقدسة المنبعثة من الدهان الذى يدهن به المتلاكمان ، ويشهد فى لهف تتابع هذه الطقوس البطيئة والقرابين المختلة النظام . ويزيد هذا المنظر صدقاً تلك الرسوم التى ترسمها على الحائط الظلال المكافحة . وهذه مقدمات مقررة لدين وحشى . أما الساعة الرهيبة فتأتى بعد ذلك .

وهذا مكبِّر الصوت يعلن : عمّار « الوهرانى الصلب الذى لم يقهر » ضد بيريز « الملاكم الجزائرى الشهير » . وقد يسىء من لم يكن من أهل الفن تأويل الصياح الصاخب الذى يلقى تقديم الملاكمين فى حلقة الملاكمة ، فيتصور نضالا عظيما يفض فيه الملاكمان نزاعاً شخصياً يعرفه الجمهور . والواقع أنه نزاع سيفضانه ، ولكنه النزاع الذى يفرّق فى غلظة وشراسة بين مدينتى الجزائر ووهران منذ مائة عام . ولو قد مضت على هذا النزاع بضعة من القرون لجرّت كلتا المدينتين الإفريقيتين على صاحبتها من الشر والهول مثل ما كان بين بيزا وفلورنسا فى أزمان أعظم حظاً من السعادة والهناء . ويزيد الخصومة عنفاً أنها فى أغلب الظن لا ترجع إلى سبب . وإذ تهيأت لهما كل الأسباب التى تدعوهما إلى تبادل المودة ، فهما على العكس من ذلك تتبادلان البغض بنفس هذا القدر . فالوهرانيون يتهمون الجزائريين « بالتحذق » . والجزائريون يذهبون إلى أن الوهرانيين « غلاظ جفاة لا حظ لهم من ترف » . وهذا سباب أشد إقذاعاً مما يبدو فى ظاهر الأمر ، لأنه يتصل بالمعانى المجردة لا بالحقائق الواقعة . وإذ حيل بين المدينتين وبين

الحرب وما تقتضيه من حصار ، فهما تلتقيان وتتناضلان وتتسابان فى ميادين الرياضة والإحصائيات والأعمال الكبار .

هى إذن صفحة من صفحات التاريخ تنشر على حلقة الملاكمة . والوهرانى الصلب يشدّ أزره نحو ألف صوت من الأصوات الصاخبة ، وهو إذ يهاجم بيريز يدافع بذلك عن نهج معين فى الحياة وعن فخر إقليمه بأسره . والحق يضطرنا إلى أن نقول إن عماراً لا يحسن توجيه النضال ؛ فإن فى مرافقيه عيباً شكليًّا ، إذ ينقصه طول الساعد ، فى حين أن ذراع الملاكم الجزائرى ، على العكس ، تصل إلى الطول المطلوب ؛ فهو يصيب بطريقة مقنعة خصمه فى حاجبه . وإقليم وهران تزدهيه الخيلاء وسط الضجيج الصاخب لجمهور أطلق عنانه . وعلى الرغم من التشجيع المتصل الصادر من الجمهور ومن جارى ، وعلى الرغم من الصيحات المشجعة له « اخترمه ! » ، « أعلِفْهُ التراب ! » ، والصيحات المنكرة على خصمه أنه يضرب فى غير موضع للضرب ، وأن المحكم لم يرَ شيئاً والصيحات المتفائلة : « لقد امتُصّ ! » ، « لم يبقَ به رمق ! » — على الرغم من كل ذلك فقد أعلن انتصار الجزائرى بالأبناط وسط صياح استنكار لانهاية له . وجارى الذى لايفتأ يتحدث عن الروح الرياضية فيصفق بشكل يتكلف الوضوح ، وفى نفس الوقت يهمس فى أذنى بصوت يكاد يضيع وسط هذا الصياح : « وكذلك لن يستطيع أن يقول « هناك » إن الوهرانيين غلاظ جفاة » .

على أن ألواناً من الصراع لم ينبىء بها البرنامج قد ثارت فى القاعة . فهذه كراسىّ ترفع ، والشرطة تشق لنفسها طريقاً ، والهياج يبلغ أشدّه . ولتهدئة الخواطر ، والعمل على استعادة الهدوء ، أسرعت « الإدارة » فكلفت الفونوغراف بصياح أغنية « سامبر وموز »[1] وقد اتخذت القاعة أثناء لحظات مظهراً رائعاً . فهذه عناقيد متشابكة من المتشاجرين ومن المحكمين المتطوعين تترجح تحت قبضات رجال الشرطة ، والجمهور صاخب يطالب ببقية البرنامج يعبر عن رغباته عن طريق أصوات متوحشة أو صيحات تريد أن تشبه صياح الديك أو عويل القط . وكل هذا غارق فى النهر الجارف للموسيقا العسكرية . على أنه يكفى الإعلان عن الصراع الهام حتى يعود الهدوء . ويتم ذلك فجأة

---

(١) إحدى الأغانى العسكرية الحماسية الشهيرة .

دون تدرّج ، كما يغادر الممثلون المسرح حين تنتهى القصة ، فتنتفض قبعات ، وتصفّ مقاعد فى سرعة وسهولة ، وتتخذ الأوجه فى غير تردد المظهر العطوف للمتفرج الطيب الذى أدّى ثمن تذكرته ليشهد حفلة عزف موسيقا للأسر .

وفى الصراع الأخير يلتقى بطل فرنسى من أبطال البحرية بملاكم وهرانى . أما هذه المرة فالاختلاف فى طول الساعد فى صالح الوهرانى . على أن امتيازه أثناء الجولات الأولى لا يحرّك الجمهور ؛ فهو يفيق من هياجه ، ويستعيد هدوءه ، ولا يزال قصير التنفس . فهو يصفّر ، ولكن فى غير حماسة عدائية وتنقسم القاعة إلى فريقين كما تقضى بذلك القواعد التقليدية . ولكن انحياز كل متفرج إلى أحد الخصمين يشوبه عدم الاكتراث الذى يلى بذل الجهد الكبير . فإذا ما قاوم الفرنسى ، أو إذا ما نسى الوهرانى أنه لا يصح الهجوم بالرأس ، انهالت على هامة الملاكم موجة من الصفير فخنتها ، ولكن لا تلبث أن ترفعها زوبعة من التصفيق . ولا بد من الوصول إلى الجولة السابعة حتى تطفو الرياضة على سطح الماء ، فى ذات الوقت الذى يأخذ فيه الهواة الحقيقيون يطفون من أعماق إعيائهم . لقد ألقى الفرنسى على الأرض ، ورغب حينئذ فى أن يكسب لنفسه أبناطاً ، فانهال على خصمه . قال حارى : « هانحن أولا ، قد وصلنا ، سنشهد الآن صراع الثيران . » وفعلاً كان صراع ثيران . فالملاكمان يتصببان عرقاً تحت الضوء الضعيف ، وقد أخذا يبدآن الهجوم ويضربان مغمضى العينين ، ويدفعان بالأكتاف والركب ، ويتبادلان الدم ، ويستنشقان فى حدة . وفى نفس اللحظة وقف جمهور المتفرجين ، وأخذ يقطّع جهود البطلين كما يقطّع الشعر ؛ فهو الذى يتلقى الضربات ويردّها ، ويسمع دوى ذلك فى ألف صوت كلها أصم لاهث . وهؤلاء المتفرجون الذين اختاروا بطلهم فى غير اكتراث يلتزمون اختيارهم فى تعنّت وولع شديدين . ولا تمرّ عشر ثوانٍ حتى يكرر جارى صيحة تخترق أذنى اليمنى : « هيا يا أزرق الياقة ! هيا للبحرية ! » على حين يصيح متفرج أمامنا للوهرانى بالإسبانية : « تقدم أيها الرجل ! » والرجل والياقة الزرقاء يتقدمان ، وتتقدم معهما فى هذا المعبد المبنى من الجير والصفيح والأسمنت قاعة بأسرها تهب نفسها كاملة لآلهة منخفضة الجبين . وكل ضربة تدقّ صمّاء على الصدور اللامعة تدوى فى شكل تموجات هائلة على جسم الشعب نفسه الذى يبذل مع الملاكمين آخر جهد من جهوده .

وما دام الجو قد تهيأ على هذا النحو ، فإن المباراة التى تنتهى إلى عدم فوز أحد الخصمين تقع موقعاً سيئاً فى نفوس النظارة ؛ فإنها تؤذى فى الجمهور حساسية مانوية . فهناك الخير والشر ، والمنتصر والمنهزم . وإذا لم تكن مخطئاً فلا بد أن تكون صائباً . ونتيجة هذا المنطق الدقيق الذى لايتسرب إليه الخطأ تتقدم بها فى الحال أصوات صادرة من ألفى رئة عنيفة ، وتتهم القضاة بالارتشاء . غير أن ذا الياقة الزرقاء سعى إلى خصمه يقبله على الحلقة ويشرب من عرقه الأخوى . وهذا كفيل بأن تنقلب مشاعر القاعة فتنطلق مصفقة . وجارى محق بلا شك فيما قال ، فليسوا جفاة ولا غلاظاً .

والجمهور الذى يتفرق فى الخارج تحت سماء يغمرها السكون ، وتملؤها النجوم قد شارك فى أشد المعارك إضناء ، وهو صامت يتسرب خلسة دون أن يقوى على التأويل والمناقشة . هناك الخير والشر . وهذا الدين لا هوادة فيه . لم تعد جماعة المؤمنين به إلاّ حشداً من الظلال السوداء والبيضاء التى تختفى فى ظلمات الليل . فالقوة والعنف إلهان منفردان ، وهما لايمنحان الذكرى شيئاً ، على حين يوزعان معجزاتهما فى الزمن الحاضر ملء اليدين . وهاهما قد فُصِّلا على قدّ هذا الشعب الذى لا ماضى له والذى يقيم شعائره الدينية حول حلقات الملاكمة . وهى طقوس تشق أحياناً ولكنها تبسط كل شىء . الخير والشر ، المنتصر والمنهزم . أمافى مدينة كورينتوس ، فقد قام معبدان متجاوران : معبد العُنْف ، ومعبد الضرورة .

المبانى والآثار

هنالك أسباب عدة يرجع بعضها إلى الاقتصاد وبعضها الآخر إلى علوم ما بعد الطبيعة ، تدفعنا إلى القول إن الطراز الوهرانى (إن كان هناك طراز وهرانى) يبدو فى قوة ووضوح فى البناء الغريب الذى يدعى « منزل المستغلّ » . والمبانى والآثار كثيرة فى وهران . فالمدينة لها نصيبها الضخم من تماثيل القواد الحربيين والوزراء ورجال الخير المحليين . تلقاها فى ميادين صغيرة مغبرة أسلمت أمرها للمطر والشمس ، واستحالت هى أيضاً إلى جو الحجارة والسأم ، ولكنها تمثّل تأثيراً خارجيًّا . ففى بلاد البربر هذه السعيدة تعتبر دلائل للمدنية باعثة على الأسف .

أما وهران فعلى العكس من ذلك أقامت لنفسها هيا كلها الخاصة . فقد رغب الوهرانيون فى أن يبنوا وسط الحى التجارى بناء يضم مختلف الهيئات الزراعية التى لا حصر لها والتى تعتبر مورد الحياة لهذا البلد ، ففكّروا فى أن يقيموا بالرمل والجير صورة مقنعة تبيّن خصالهم ، وبنوا « منزل المستغلّ » . وإذا اعتمدنا على هذا البناء لإصدار حكمنا ، تبيّنا أن هذه الخصال ثلاث : الجرأة فى الذوق ، والجنوح إلى العنف ، والحذق فى الجمع بين الاتجاهات المختلفة للتاريخ . فقد شارك كل من مصر وبيزنطة وميونيخ فى إقامة هذا البناء الرقيق الذى يشبه قطعة من الحلوى تمثّل كأساً مقلوبة . وقد كسى السقف بأحجار متنوعة الألوان عنيفة التأثير . وهذه الأحجار الحادة اللون من الإقناع بحيث لا تتيح لك ملاحظة شىء لأول وهلة . على أنك إذا اقتربت منها ، وقد استرعى انتباهك ، تبينت أن لها مغزى : فهذا مستغلّ رشيق له رباط عنق على شكل فراشة ، وتغطى رأسه قبعة بيضاء من الفلّ ، يتلقى عبارات الإجلال التى يتقدم بها موكب من الرقيق مرتدين رداء قديم الطراز . وقد أقيم البناء ذو النقوش الملوّنة على مفترق للطرق ، تذهب وتجىء فيه عربات الترام الضئيلة ، التى تغرى قذارتها بزيارة المدينة .

ومن جهة أخرى فإن وهران تفخر جدًّا بأسديها اللذين يقومان فى ميدان السلاح . ومنذ سنة ١٨٨٨ يتصدران جانبى السلم فى دار البلدية . وكان صانعهما يدعى قائين . والأسدان قصيرا القامة ولهما روعة وجلال . ويقال إنه إذا كان الليل ، هبطا من قاعدتهما أحدهما إثر صاحبه فطوّفا حول الميدان المظلم ، ثم بالا طويلاً تحت أشجار الجمّيز الضخمة المتربة . وهذه بالطبع أحاديث يعيرها الوهرانيون آذاناً صاغية ، ولكنها غير معقولة .

وعلى كثرة البحث لم أعثر من أمر قائين هذا بشىء . غير أنه كان مشهوراً بأنه مثّال حيوانات حاذق . على أنى كثيراً ما أفكر فيه ؛ فهو قد سلك إلى وهران منحدراً خاصًّا من منحدرات العقل . فهذا مثّال ذو اسم رنّان ترك هنا أثراً غير ذى خطر . ومع ذلك فإن مئات الألوف من الرجال أنسوا تلك الوحوش الحليمة التى وضعها أمام دار البلدية المزهوة بنفسها . وهذه إحدى وسائل النجاح فى ميدان الفن . ولا شك أن هذين الأسدين إن دلاّ على شىء فهما يدلاّن على شىء آخر غير النبوغ ، شأن آلاف من الآثار الأخرى . وقد

استطاع بعض الفنانين أن يخرجوا « طوف الليل » و « القديس فرانسوا يتلقى الوسم » و « داڤيد » و « تمجيد الزهرة » . أما قائين فقد أقام حيوانين مضحكين فى الميدان العام لإحدى المدن التجارية من وراء البحار . على أن تمثال « داود » قد يهوى يوماً مع فلورنسا ، ويُنقذ الأسدان من الدمار . وأعود فأقول إنهما إن دلاّ على شيء فليس على النبوغ .

ومالى أتعمق هذه الفكرة ، فإن ذلك الأثر يشتمل على تفاهة ومتانة . ليس للفكر فيه نصيب ، وللمادة النصيب الأكبر . تريد الرداءة أن تبقى بكل الوسائل ومنها البرونز . يأبى الناس أن يكون لها حقوق أبدية ، وهى تغتصب لنفسها هذه الحقوق فى كل يوم . أليست هى الأبد ؟ ومهما يكن من شيء ففى هذا الثبات ما يدعو إلى التأثر ، وهو يحمل بين طياته درساً ثميناً وهو الدرس الذى تلقيه جميع مبانى وهران وآثارها ، بل تلقيه وهران نفسها . ففى خلال ساعة من ساعات اليوم ، ومرّة بين المرات ، يرغمك هذا الدرس على أن توجه عنايتك إلى مالا أهمية له . ويستفيد الفكر من هذا الرجوع إلى نفسه ، فهو رياضة له . وما دام فى حاجة إلى أن يقضى بعض الوقت متواضعاً ، فيخيّل إلىّ أن هذه فرصة خير من غيرها تمكنه من النزول إلى مستوى البلاهة . وكل ما من شأنه الفناء يريد أن يبقى . فلنقل إذن إن كل شيء يريد البقاء . فليس للأعمال الإنسانية مغزى آخر . وإذا نظرنا إلى أسدى قائين من هذه الناحية ، فإن لهما فى البقاء حظًّا لايقل عن حظ آثار « أنكور » . وهذا يغرى الإنسان بالتواضع .

وهناك مبان وهرانية أخرى ، أو على الأقل ينبغى أن نطلق عليها هذا الاسم ما دامت هى أيضاً تشهد للمدينة ، وقد تكون أقوى تعبيراً فى شهادتها ، أعنى بها الأعمال الكثيرة التى تستغرق من الساحل الآن نحو عشرة كيلومترات . ويظهر أنه يُراد تحويل خليج من أبهى الخلجان إلى ميناء ضخم . والواقع أنها فرصة جديدة يواجه فيها عزم الإنسان صلابة الصخر .

وقد ترى فى لوحات لبعض أساتذة الفن الفلمنك موضوعا نحما يثير الإعجاب ويعود إليه هؤلاء الفنانون فى إلحاح متصل ، وهو بناء برج بابل . ترى مناظر طبيعية غير مألوفة ، وصخوراً تتسلق السماء ، ومنحدرات وعرة يعج فيها العمال

والحيوان ، وتنتشر السلالم والآلات الغريبة والحبال والجرارات ، ولا يظهر الإنسان فى هذا الميدان إلا ليعطيه الطابع الذى يتجاوز الطاقة الإنسانية . وهذا هو الذى تفكر فيه حين ترى الرصيف الذى يتخذ على الساحل شرق وهران .

فقد تعلقت بمنحدرات ضخمة قضبان من الحديد ، وعربات دقاق ، ورافعات للأثقال ، وقطارات ضئيلة . فى هذه الشمس المهلكة ترى قاطرات كأنها لعب الأطفال تدور حول صخور ضخمة بين الصفير والغبار والدخان . وينشط ليل نهار شعب من النمل على هيكل الجبل الداخن ، وقد تدلى طوال حبل واحد ملتصق بالصخر البحرى عشرات من الرجال أسندوا بطونهم على مقابض ثاقبات أوتوماتيكية ، ويضطربون فى الفضاء طوال النهار ، فيستخرجون قطعاً هائلة من الصخر تهوى بين الغبار والدوى . وعلى بعد منهم تنقلب عربات صغيرة من أعلى المنحدر فتهوى الصخور فجأة فى البحر ، طائرات متدحرجات كأنها سرب من الأطفال أطلقوا من المدرسة . وبين فترات منتظمة ، فى قلب الليل أو فى جوف النهار ، يسمع دوى يزلزل الجبل كله ويرفع البحر نفسه .

والإنسان وسط هذا كله يهاجم الصخر وجهاً لوجه . فإذا أتيح لنا أن ننسى لحظة الرق القاسى الذى يقوم على أساسه هذا العمل ، فلا سبيل إلى التخلص من الإعجاب الذى يستأثر بنا . هذه الأحجار التى تقطع من الجبل مسخرة لخدمة الإنسان ؛ فهى تترا كم تحت الموجات الأولى ، ثم تطفو شيئاً فشيئاً ، وأخيراً تنتظم على شكل رصيف لا يلبث أن يغطى بالآلات والرجال الذين يتقدمون فى عرض البحر يوماً بعد يوم . ولا تفتأ آلات ضخمة من الفولاذ تشبه الأفكاك تقضم بطن الصخور البحرية ، دائرة حول نفسها ، ثم مفرغة فى الماء شحنتها الحجرية . وكلما هبطت جهة الساحل تقدّم الشاطئ نحو البحر تقدماً لا سبيل إلى دفعه .

ولا ريب فى أن إبادة الصخر غير ممكنة . إنما الممكن نقله من مكان إلى مكان . وهو على كل حال سيبقى أكثر من الرجال الذين يستخدمونه . ولكنه فى الوقت الحاضر يدعم إرادتهم فى العمل . ولا شك أن هذا نفسه غير مجد على أن نقل الأشياء من أماكنها هو عمل الإنسان . فعليه أن يختار بين أن يعمل هذا ، أو لا يعمل شيئا . ويبدو أن الوهرانيين قد اختاروا لأنفسهم مصيرهم . فامام

هذا الخليج الساكن المتقن ، ولسنوات مقبلة عديدة ، سيكدسون أكواماً من الحصى طوال الشاطئ . وبعد مائة عام ، أى غدا ، ينبغى استئناف ذلك كله . أما الآن فهذه الأكداس من الصخور تشهد للرجال الذين يجولون وسطها وقد علا وجههم قناع من التراب والعرق . فمبانى وهران الحقيقية وآثارها إنما هى أحجارها .

هجر أسبانه

يذكرنى الوهرانيون بصديق فلوبير الذى ألقى وهو يحتضر نظرة اخيرة على هذه الأرض التى لا تستعاض وصاح : أغلقوا النافذة ، فقد بلغ المنظر من الروعة أقصاه لقد أغلقوا النافذة وأقاموا حول أنفسهم سوراً ، ورصدوا المنظر من حولهم بالعزائم والرقى . غير أن ليبواتقان توفى ، واستمرت بعده الأيام تتصل بالأيام . وكذلك الحال من وراء الأسوار الصفر التى تحيط بوهران . تمضى الأرض والبحر فى جوارهما غير مكترثين . وقد أثار العالم فى الإنسان باستمراره فتنة متناقضة ؛ فهو يبعث فيه اليأس ويحيى فيه الابتهاج . لا يقول العالم للإنسان إلا شيئاً واحداً فيثير فيه الشوق ، ولكن لا يلبث أن يرده إلى الملل . وهو الفائز آخر الأمر لإلحاحه فى الإصرار ، وهو المصيب دائما .

وعلى أبواب وهران نفسها تأخذ الطبيعة فى رفع صوتها . فمن ناحية كانا ستيل تمتد أرض بور بعيدة الأرجاء تغطيها آجام ينبعث منها عرف ذكى . والشمس والهواء لا يتحدثان هنا إلا عن العزلة . وفوق وهران تجد جبل سانتا كروز والنجد وعدداً لا يحصى من مجارى السيل العميقة التى ترقى إليه . وهناك طرق ، كانت مطروقة فيما مضى ، تتعلق بجوانب التلال المشرفة على البحر . فإذا كان شهر يناير اكتسى بعضها بالزهر الأبيض والذهبى فأصبحت طرقات بديعة طرزت بالصفرة والبياض . وقد قيل كل شئ عن جبل سانتا كروز . ولو أن لى أن أصفه ، لأغفلت ذكر المواكب المقدسة التى تصعّد فى التل القاسى فى الأعياد الكبرى ، ولذكرت ألوانا أخرى من الحج ، وهى ، زيارات فردية منعزلة تتخذ طريقها فى الصخر الأحمر ، وترتفع فوق الخليج الساكن فتقضى فى هذه الأماكن الجرداء ساعة مضيئة رائعة الكمال .

على أن لوهران صحاريها الرملية أيضاً . وهى شواطئ قفر على بعد نحو عشرين كيلو متراً من المدينة . وتلقاك صحارٍ أخرى غير هذه قبل الوصول إلى المدينة على مقربة من أبوابها ، ولكنها ليست مهجورة إلا فى الشتاء وفى الربيع . وهى حينئذ أنجاد مواجهة للبحر يغطيها زهر الأسفوديل . وتكثر فيها الفيلاّت الصغيرة العادية المبعثرة وسط الأزهار . ويزأر البحر شيئاً أسفل النجد ، غير أن الشمس ، والريح الخفيفة ، وبياض الأزهار ، وزرقة السماء التى تكون أخذت فى الصفاء ، كل هذا يؤذن بمقدم الصيف ، فيرى الإنسان فى خياله الشباب الذهبى الذى يغمر الشاطئ حينئذ ، والساعات الطوال التى تقضى على الرمل ، والعذوبة المفاجئة التى تحل فى المساء . وفى كل عام ترى على هذه الشواطئ فوجاً جديدا من الفتيات كأنهن زهرات جديدة . وقد يلقى فى روعك أنهن لا يَعِشْنَ إلا فصلاً واحدا . وإنما تخلفهن من قابل زهرات جديدة لم تكن فى العام السابق إلا بنيّات صلاب الأجسام كأنهن براعيم الزهر . وفى الحادية عشرة من الصباح تنساب كل هذه الأجسام الفتية من النجد ، وتنهمر على الرمل كأنها موجة مختلفة الألوان .

فإذا مضيت فى سيرك غير مبعد عن هذا المكان الذى يضطرب فيه مائتا ألف رجل كأنهم فى دائرة مفرغة ، وجدت مناظر طبيعية عذراء ، وكثباناً جرداً عراضاً لا أثر فيها للإنسان ما عدا كوخاً متهدماً . وبين حين وحين تجد راعياً أعرابيًّا يدفع إلى قمم التلال البقع الحمراء والصفراء التى يتألف منها قطيعه من الماعز . على هذه السواحل الوهرانية يبدو كل صباح من أيام الصيف كأنه أول صباح فى العالم . ويبدو كل أصيل كأنه آخر أصيل فيه ، كأنه الاحتفال الرسمى بنهاية العالم ، يُنبئ بهذه النهاية عند غروب الشمس ضوء أخير يقتّم كل الألوان : فالبحر مسرف فى زرقته ، والطريق اتخذت لون الدم المتجمد ، والشاطئ أصفر ، وكل شىء يختفى مع الشمس الخضراء . وما هى إلا ساعة حتى تسيل التلال بضوء القمر . وهى حينئذ ليال مسرفة فى الروعة ، تمطر وابلا من النجم ، وتتخللها زوابع فى بعض الأحيان ، فيجرى البرق متصفحا التلال ، ويشيع على السماء لوناً شاحباً ، ويفيض على الرمال وفى الأعين ضوءاً برتقالى اللون . على أن هذا الشعور لا يمكن المشاركة فيه . فلا بد أن تحسه بنفسك . وكل هذه العزلة وهذه العظمة تكسب تلك الأماكن مظهراً

لا بنسى . وفى مبدأ الفجر الدافئ حين تمر الموجات الأولى التى ما تزال سوداء مُرَّة ترى كائناً جديداً ينفذ من ماء الليل الصفيق . إنى لأذكر هذه المتع فلا آسى عليها ، إنما أعترف أنها كانت حلوة عذبة . والآن وقد انقضت سنوات عدة لا تزال ذكرياتها باقية فى ناحية من نواحى هذا القلب الذى يصعب عليه مع ذلك الوفاء والاحتفاظ بالذكرى . وإن عدت اليوم إلى تلك الكثبان الجرداء فأنا أعلم أن السماء ذاتها ستمضى فى إلقاء ما تحمل من رياح ونجوم .

هذه أرض البراءة .

غير أن البراءة تعوزها الرمال والأحجار . وقد نسى الإنسان كيف يعيش . هذا على الأقل ما يبدو عليه وقد انزوى فى هذه المدينة العجيبة التى استقر بها الملك . على أن هذا التقابل هو الذى يكسب وهران قيمتها . فهى عاصمة الملك ، تحاصرها البراءة والجمال . والجيش الذى يحاصرها له من الجند بقدر ما له من الأحجار . ومع ذلك فقد تمرّ بك فى المدينة ساعات يشتد فيها الميل إلى الاستسلام للعدو ! فما أشد هذه الرغبة فى الانسجام مع الأحجار ، فى الإنسجام مع ذلك العالم المتوقد الجامد الذى يتحدى التاريخ واضطراباته ! وهذه الرغبة بالطبع لا غناء فيها . ولكن فى كل إنسان غريزة عميقة ليست غريزة الهدم ولا هى غريزة الإنشاء ، إنما هى الرغبة فى ألاّ يشبه شيئاً (١) وقد تسمع أحياناً هذه الدعوة وأنت تسير فى شوارع وهران المتربة وفى ظل جدرانها الساخنة . ويخيل إليك حيناً أن المستجيبين لهذه الدعوة لن يخسروا شيئاً ؛ فهى ظلمات أوريديس ، وهى نوم إيزيس . وهذه هى الصحارى التى يرتد الفكر فيها إلى نفسه . وهذه يد المساء الرطبة قد وضعت على القلب المضطرب . وعلى جبل الزيتون هذا لاحاجة إلى اليقظة ؛ فإن الفكر يدرك الرسل النائمين ويستصوب نومهم . أكانوا مخطئين حقا ؟ ومع ذلك فقد نزل عليهم الوحى .

---

(١) وأنا أتحدث هنا عن رغبة معينة لأنى أعتقد أنها من النوع الذى يجب أن يكون الانسان قد تلقاه . فيستطيع بعد ذلك أن يحسن التقدير فى ما يساويه العمل وما لا يساويه .

ولنذكر كاكيامونى وهو فى الصحراء . أقام بها دهراً طويلا جالساً القرفصاء ساكن الحركة وقد اتجه نظره نحو السماء . وكان الآلهة أنفسهم يغبطونه على هذه الحكمة وعلى هذا المصير الذى يشبه مصير الحجارة . وقد اتخذت الطير من يديه المبسوطتين الجامدتين عشًّا لها . ولكنها ذات يوم غادرت هذا المكان وطارت مستجيبة لنداء أرض نائية . وهذا الرجل الذى قتل فى نفسه كل رغبة وكل إرادة ، ومحا كل فخر وكل ألم ، أخذ يبكى . وهكذا قد ينبت بعض الزهر فى الصخر نفسه .

نعم لنستجب للحجر حين تدعو إلى ذلك الضرورة ! فهذا السر وهذا الابتهاج اللذان نتطلبهما فى الأوجه الإنسانية ، يستطيع هو أيضاً أن يمنحنا إياهما . لا شك أن ذلك لا يمكن أن يدوم . ولكن ما الذى يمكن أن يدوم ؟ فإن سر الوجوه يستخفى هو أيضاً ، وها نحن أولاء نندفع من جديد فى حلقة الشهوات . وإذا لم يكن فى وسع الحجر أن يرضينا أكثر من قلب الإنسان ، فإن فى وسعه على الأقل أن يرضينا بقدر ما يرضينا قلب الإنسان .

« ألا نكون شيئاً ! » لقد أثارت هذه الصيحة شعباً كاملا آلافاً من السنين . وقد تخلل صداها ثنايا الأجيال والبحار حتى وصل إلى هنا ، إلى أقدم بحار العالم ليموت . وهو لا يزال يرتطم فى صوت أصمّ على صخور وهران السميكة . وكل إنسان فى هذا البلد يستجيب له دون أن يدرى . ولا ريب أن كل ذلك عديم الجدوى . فلا سبيل إلى إدراك العدم ، كما لا سبيل إلى إدراك المطلق . ولكن مادمنا نتلقى من الأبد هذا الدعاء الذى يحمله إلينا ورد الطبيعة وألم الإنسان على أنه نعمة ، فلنستجب لهذا الدعاء إلى النوم الذى تحمله الأرض أحياناً . فليس هو أقل صواباً من ذاك .

وقد يكون هذا خيط أريان الذى يهدى إلى سواء السبيل فى تلك المدينة الصاخبة اليقظة فى نومها . تتعلم فيها مزايا بعض السأم ، وكلها مزايا مؤقتة . وإذا أردت أن تتقى هذا السأم فعليك أن تقول للمينوتور : « نعم » . وهذه حكمة قديمة خصبة . وإذا أشرفت من فوق الصخور على البحر الهادئ المطمئن ، ووقفت فى توازن معتدل على مسافة متساوية بين الرأسين الضخمين الغاطسين فى الماء الصافى عن يمين وعن يسار ، ففى خلال اللهث المتقطع الصادر من زورق خفر السواحل الذى يزحف فى عرض البحر ويغمره ضوء ساطع ، تستطيع أن تسمع فى وضوح

النـداء الخافت للقوى الوضاءة الخارقة للطبيعة . وهذا وداع المينوتور .

لقد انتصف النهار ، واليوم نفسه فى الميزان . وإذا فرغ المسافر من أداء الطقوس تلقى ثمن إنقاذه ، وهو هذا الحجر الصغير الذى يلتقطه على الصخرة يابساً ناعماً كأنه زهر الأسفوديل . وليس العالم بالقياس إلى الملمّ بهذه الأسرار بأثقل حملاً من هذا الحجر . فمهمة « أطلس » سهلة يسيرة ، ويكفى أن يختار لها الساعة الملائمة حينئذ . وأنت على هذه الشواطىء تشعر أنك تستطيع أن تنقطع للحرية ساعة أو شهراً أو سنة . فهى تستقبل كل شخص دون تمييز ودون النظر إليه ، تستقبل الراهب والموظف والغازى . وكنت أتوقع فى بعض الأيام أن ألقى فى شوارع وهران ديكارت أو سيزار بورجيا . لم يتح لى ذلك . وقد يكون غيرى أسعد حظاً منى . وفيما مضى كان القيام بعمل جليل أو تحقيق مهمة كبيرة أو التفكير العميق ، يقتضى عزلة الصحراء أو الدير . هنالك كان الفكر يقظاً حريصاً . وهل من مكان يلائم يقظة الفكر وحرصه خير من عزلة مدينة كبيرة قد استقرت استقراراً أبديًّا فى الجمال الذى لا فكر فيه ؟

وهذا هو الحجر الصغير الناعم مثل زهر الأسفوديل ، وهو فى مبدأ كل شىء . فالزهر والبكاء (إن حرص الإنسان عليه) والرحيل والنزاع ، كل ذلك يرجأ إلى غد . وفى وسط النهار حين تفتح السماء ينابيع الضوء فى الفضاء العظيم الرنان ، تبدو جميع رؤس الساحل كأنها اسطول صغير يوشك أن يقلع . وهذه المراكب المثقلة بالحجارة والضوء ترجف فوق قواعدها كأنها تتأهب للسير إلى جزر تغمرها الشمس . أين منّى اصباح وهران ! ومن أعلى النجد يغوص الطير فى خواب ضخمة يزبد فيها الهواء . والشاطىء كله متأهب للرحيل تجرى فيه قشعريرة المخاطرة . غداً ، قد نسافر معاً

ألبير كامو

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته